محاضرات في الدعوة

(1)

أريد أن أحمّلكم الأمانة

محاضرة قوامها: الحث على الدعوة إلى الإسلام بالعلم والعمل

أحمد الجوهري

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم.

أما بعد، فإنَّ سعادتي بالغة بهذه الفرصة الطيبة التي التقيت فيها بكم أيها الإخوة الكرام، وقد دخل بها على قلبي من السرور ما الله به عليم، فانشرح بذلك صدري وفرحت روحي ونشطت نفسي، نعّمنا الله دائمًا في الدنيا بهذه اللقاءات الطيبة وجعلها موصولة بنعيم يومِ: {ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سرر متقابلين}، وفي الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول: "وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، المتحابُّون في جلالي؛ لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء".

ثم أما بعد، أيها الإخوة الكرام، إنه لا سعادة للإنسان إلا بمعرفة الله – جل في علاه – والقيام بحقه الذي نوَّه به في أول نداء من كتابه بقوله: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}.

والطريق إلى معرفة ربنا سبحانه ومعرفة حقه ومعرفة كيفية القيام به على ما هو مطلوب هو: رسله وأنبياؤه صلى الله عليهم وسلم، فهم سفراؤه – عز ذكره – إلى خلقه، وهذه هي الغاية من إرسالهم، وهذه الغاية تشتمل على جملة من الأهداف، يأتي في مقدمة هذه الأهداف:

1– هداية الخلق إلى ما يحبه الله تبارك وتعالى وما يبغضه فيعمل الخلق بالأول ويحرصوا عليه ويتركوا الثاني ويتجنبوه، كما قال ربنا سبحانه: {ولكل قوم هاد}، {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور} وهذه الهداية هي هداية الإرشاد والبيان، أما هداية التوفيق والتثبيت فلا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، كما قال – عز شأنه –: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين}.

2- إقامة الحجة على الخلق، فبعث الله - جل وعز - النبيين مبشرين ومنذرين إلى خلقه ليقطع العذر، فلا يقولوا: ما أرسلت إلينا رسولًا، قال ربنا سبحانه: {رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا}، {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا} وبهذا يحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، فلا يقول أحد يومًا إذا أهلكهم الله بعذاب من قبل أن يرسل إليهم الرسل وينزل عليهم الكتاب: لو جاءونا لآمنَّا، {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى، قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى}.

3- بيان القدوة العملية للمنهج الذي جاء به الأنبياء والرسل من العقائد والشرائع والأخلاق حتى يحذوا الناس حذوها ويأتسوا بها، قال ربنا وهو أصدق القائلين: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}، {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}، ولهذا لما بعث الله الرسل بعثهم من البشر وبعثهم من أممهم وأقوامهم ولم يبعثهم من الملائكة أو من البشر الغرباء عنهم، حتى يستطيعوا النظر إليهم ورؤية أعمالهم وسماع أقوالهم والاقتداء بهم في ذلك كله وهم مع هذا يعيشون معهم في نفس ظروفهم ويتمتعون بنفس القدرات التي لهم.

وفي حديث سعد بن هشام قال: قلت: يا أم المؤمنين — عائشة رضي الله عنها - حدثيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: "ألست تقرأ القرآن؟ فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن".

وعنها — رضي الله عنها — قالت: - "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي؛ يتأول القرآن"، يعني: يفعل ما أمر به فيه، فيتأول ما جاء في القرآن من الأمر بالتسبيح والاستغفار في نحو قوله تعالى: {فسبح بحمد ربك واستغفره}.

4- تزكية النفوس وتطهيرها، كما قال ربنا سبحانه وتعالى عن دعاء خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم لنا: {ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم}، وقال سبحانه: {هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}، ومن هنا كان كل رسول يدل أمته على ما به تقواها وما به فجورها؛ لتحرص على الأول وتأخذ نفسها به فتفلح وتكون من أهل الجنة، وتحذر الآخر وتبتعد عنه فلا تخيب وتكون من أهل النار.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه".

5- الإخبار بالغيبيات، فإنه لا اطلاع لأحد على الغيب إلا بإذن الله عز وجل وذلك ما يأتي على ألسنة الرسل، كما قال الله عز وجل: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددًا}، فالرسل هم الذين يخبروننا عن الله جل ذكره وعن أسمائه الحسنى وصفاته العلا وأفعاله العظيمة، ويخبروننا عن الملائكة، وعن اليوم الآخر وما فيه من جنة ونار، وعن كل شيء غاب عنا ومعرفته مما يفيدنا وينفعنا ولا يمكن التوصل إليه إلا من خلال الرسل صلى الله عليهم وسلم.

ومثل هذا الأسئلة الكبرى في حياة الناس: من أين أتيت، وإلى أين أذهب، ولماذا أحيا، وكيف النجاة وبماذا؟ هذه الأسئلة الخالدة المصيرية التي تسكن الإنسان –كل إنسان – وتلح عليه ويلتمس إجابتها: لن يجيب عنها بحق وصدق وإخلاص ورفق ورحمة إلا الرسل.

هذه الأمور الخمسة ضرورات للخلق في الحياة وفي الممات ولا يقوم بها إلا الرسل، لهذا كانت الرسالة روح العالم ونوره وحياته وأمانه وصلاحه وسعادته، وكانت حاجة الخلق إليها أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء وسواها من سائر الأشياء.

أيها الإخوة الكرام، كانت هذه الحكمة من إرسال الرسل، وقد بعث ربنا سبحانه وتعالى لأجل تحقيقها عددًا كبيرًا من المرسلين، اصطفى الله – تبارك وتعالى – أنبياء ورسلًا كثيرين منهم من أخبرنا خبره وقص علينا قصته ومنهم من لم يخبرنا ولم يقصص علينا.

وجملة عدد الأنبياء جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، وأن عدد الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، ومن عجائب هذا العدد – فيما تأملته – أن عدد الأنبياء قريب من عدد الصحابة، وأن عدد الرسل منهم قريب من عدد أهل بدر من الصحابة، والله أعلم.
وكان الله – عز سلطانه – يرسل في كل أمة رسولًا، وربما كان في الزمان الواحد رسولان: إبراهيم ولوط، موسى وهارون، وربما أكثر: يحيى وعيسى وزكريا.

وربما تابع – سبحانه وتعالى – بين الأنبياء بلا انقطاع كما كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وربما جاء اللاحق بعد فترة وانقطاع من السابق كما في بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، قال ربنا جل في علاه: {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير}.

ومن أولى دلائل بعثة هذا العدد من الرسل إلى أهل الأرض – وليس رسولًا واحدًا –: أن الناس ينسون، وأن الشرائع تمحى وتدرس، وأن الدنيا تتجدد وقائعها وتتنوع وتتوسع.

وقد شاء الله – تبارك وتعالى – أن يختم الرسالات والنبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال عز من قائل: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}.

وقد قال: {وخاتم النبيين} ولم يقل: (وخاتم المرسلين) لأن كل رسول نبي، وليس كل رسول نبيًّا، فالرسول يجمع صفتين اثنتين: النبوة، وهي: الخبر الذي يأتيه من الله تعالى، والرسالة، وهي: التكليف بالتبشير والإنذار، والنبي له صفة الأولى منهما فقط، فلو قال: (وخاتم المرسلين) ربما توهم البعض أنه بهذا لن يبعث رسلًا آخرين لكنه من الجائز أن يبعث أنبياء أو نبيًّا.

ولا يشكل على هذا أنه – تعالى – يبعث عيسى صلى الله عليه وسلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، فإنه ينزل بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد".

وأيضًا عيسى صلى الله عليه وسلم نبي مرسل بالفعل قبل نبينا صلى الله عليه وسلم إلى أمة، وله كتاب، فلا يقع ببعثته اختلاط.

والمقصود هنا أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين فلا نبي بعده، ومن ثم فمن يأتي السؤال الطبيعي: من يقوم بمهام الأنبياء تلك (هداية الخلق، إقامة الحجة، بيان القدوة، تزكية الأنفس، تبليغ ما نزل به الوحي من العقائد والأحكام)، من يحمل الراية من بعد الأنبياء إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله – خاتمهم كما يقول هو في الحديث: " بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي".

إن طبائع الناس باقية كما هي لن تتغير: سينسون، والشريعة الخاتمة من الجائز أن يأتي عليها ما أتى على الشرائع السابقة: تمحى وتدرس، وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى هذا، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة".

وإن نظرة فاحصة إلى الواقع – واقع الناس عمومًا وواقع المسلمين خصوصًا – يمكن أن يحمل المتأمِّل على القول: "إن هذا الواقع يشبه الحالة التي كان الله تبارك وتعالى يبعث فيها الرسل، ولولا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لقلت: إن العالم بانتظار بعثة رسول".

ولقد مرت على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم قرون عديدة وبقي من الزمان ما شاء الله حتى تقوم الساعة، فما العمل؟

لقد بقيت مهمة تذكير الناس تلك: الهداية وإقامة الحجة والتبليغ، بيان القدوة وتزكية الأنفس، تجديد الشريعة، وتثميرها، بقي هذا كله على عاتق هذه الأمة الكريمة؛ يقوم علماء كل زمان منهم في الدين مقام الأنبياء والمرسلين ويقوم عوامهم مقام الصحابة رضوان الله عليهم في تعلمه والسؤال عنه والعمل به وتطبيقه وإيصاله إلى من حولهم، وإنها لمهمَّة شاقة عسيرة بقدر ما هي منزلة شريفة كريمة.

سرحت النظر في القرآن الكريم أتتبع حديثه عن عالمية الرسالة الخاتمة، وهي كثيرة تتجاوز 350 آية، تارة يذكرها فيقول: {رحمة للعالمين}، وتارة يقول: {إني رسول الله إليكم جميعًا}، وتارة يقول: {وما أرسلناك إلا كافة للناس} وتارة بأن يأتي حديث القرآن موجهًا إلى: الإنسان، الناس، بني آدم.

ولفتني أن كثيرًا من هذه الآيات نزلت في أوائل ما نزل في مكة المكرمة، انظر إلى خاتمة سورة القلم وهي السورة الثانية في نزول القرآن، يقول الله تبارك وتعالى: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما

سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين}، يقول القرآن الكريم هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم يومها لا يملك موضع قدميه، وليس معه على دعوته تلك إلا أناس من أهل بيته: خديجة وعلي، وربما توسعت الدعوة بعض الشيء فآمن بها اثنان مع هذين الاثنين، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسأل: من معك على هذا الأمر فيقول: "معي حر وعبد"، إشارة إلى أبي بكر وبلال، ولعلها كلمة فيها تورية ابتغاء المحافظة على أفراد المسلمين آنذاك يقصد: معي من هو ، لكن الواقع بكل حال كان صعبًا، لقد مضى محمد ﷺ يومًا يخترق صفوف الناس ينادي: "أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، يمشي بها بين الدور وحول الزروع ويدخل بها الأسواق يصيح والناس مزدحمون عليه، فما كان أحد يجيبه شيئًا، وهو ﷺ لا يسكت.

ويخبر من رآه ﷺ على هذه الحالة أنه كان وراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو ضفيرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، فكان الناس يقولون: من هذا المنادي؟ فيجيب الذين يعرفونه: هذا محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، فإذا سألوهم: من هذا الذي يكذِّبه؟ قالوا: عمه أبو لهب!

ويذكر هنا ما كان في يوم الصفا، فإنه قد حدث فيه ما هو أشد من ذلك وأقسى، حتى اهتم له القرآن ونزلت فيه سورة كاملة هي قوله تعالى: {تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد}.

ورغم هذا يخاطب القرآن الأمة في شخص أولئك النفر والعدد القليل بخطاب العالمية، وهذا عجيب.

أيها الإخوة الكرام، لقد توفي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تتحقق صفة العالمية تلك لدين الإسلام عمليًّا في أرض الواقع، والذين حققوا هذه العالمية هم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام في السنة الحادية عشرة وقد كان الإسلام قد غطى أرض الجزيرة العربية لكنه لم يكن تجاوزها، فتجاوزها على أيدي الأطهار الأبرار ووصل إلى المحيطات والقارات في المشارق والمغارب بجهودهم وجهادهم لله درُّهم.

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن الدعوة أبقى من الداعية، وأن الرسالة الخاتمة مهمة النبي صلى الله عليه وسلم والأمة معًا فإن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن عبء الرسالة يكون على الأمة من بعده.

وهذا فهم أصيل مصدره القرآن والسنة، نظريًّا وتطبيقيًّا فمن تأمل آيات مثل قوله تعالى: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا}، وهو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله، وقوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا} وهو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، عرفنا من أين فهم الصحابة أنهم حملة الرسالة بعد انقطاع الرسالات وختم الرسل.

وإذا تأملنا قول الله تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر} وهو حديث عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} وهو حديث عن الأمة الكريمة.

وقد درّب الله تبارك وتعالى الأمة على هذه المهمَّة تدريبًا عمليًّا وذلك في غزوة أحد يوم أشاع الشيطان في المسلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل وقعد بعض المسلمين بالفعل عن القتال حتى مر عليهم أنس بن النضر وقد ألقوا بأيديهم، فال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن الكريم يعلمهم هذا الدرس الأعظم: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين}، الدرس الذي ذكر به الصديق الصحب الكرام يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل وأصيب الناس بالدهشة وتحيروا حتى ما تقل أحدهم رجلاه فأهوى إلى الأرض فأوقفهم أبو بكر رضي الله عنه على وجه الحق في المسألة عندما قال بثباته ورباطة جأشه المعهودة: "ألا مَنْ كان يعبد محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: {إنك ميت وإنهم ميتون}، وقال:

{وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين} فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها"، وقاموا على إثرها يكملون المسير ويسعون بالمسؤولية ويرفعون الراية ويؤدون الأمانة.

ولقد كان هذا الفهم واضحًا في توجيه سلوك هذا الجيل العظيم، ومن شواهد ذلك: حادثة ربعي بن عامر التي فيها يقول لرستم قائد الفرس: "الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء مِن عبادِه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبِل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله"، تأمل هذه الألفاظ:

- (ابتعثنا).
- (لنخرج).
- (فأرسلنا بدينه).

إنها ذاتها الألفاظ الكريمة التي نقرؤها في حديث القرآن الكريم عن رسل الله صلى الله عليهم جميعًا وسلَّم.

فماذا عمل الصحابة رضوان الله عليهم ليتمكنوا من القيام بهذه المهمة؟ والجواب في نقاط مركزة وألفاظ موجزة:

- عادوا إلى مصدري الإسلام العظيمين: القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومنهما بدأوا فاجتهدوا ثم انطلقوا، وهنا حديث طويل عن جهود الصحابة الكرام في الحفاظ على القرآن والسنة نظريًّا وعمليًّا، بجهود فردية وجهود جماعية، ومن أمثلة ذلك:

أ- جمع القرآن في حياة أبي بكر رضي الله عنه.

ب- جمع القرآن في حياة عثمان رضي الله عنه.

جـ- حفظ القرآن الكريم.

د- حفظ السنة النبوية.

هـ كتابة السنة النبوية.

و- تعلم الكتاب والسنة.

ز- العمل بالكتاب والسنة.

ح- تعليم الكتاب والسنة.

ط- تربية الجيل اللاحق لهم على الكتاب والسنة.

ي- السعي بهذا في الأرض لنشره وتعميمه على بقاعها.

ويمكن أن نسمي هذه الجهود كلها: (المحافظة على القرآن والسنة لفظًا ورسمًا ومعنى وعملًا، وتوريثهما على هذا النحو، والدعوة إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة، مع الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل وصولها إلى الخلق).

وإذا تجاوزت مرحلتي جمع القرآن والسنة بمقتضى أن شواهدهما ماثلة أمامنا في المصحف الذي نحمله في صدورنا وفي كتبنا وكتب السنة مثل: الصحاح والسنن والمساند والمصنفات وغيرها، فدعوني أضع بين أيديكم هاتين الحادثتين اللتين تنبئان عن مدى عناية الصحابة بفهم هذه الرسالة وتحويلها إلى واقع وتطبيق:

والمثال الأول هو: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: {يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}.

وهذه الحادثة تدل على أن القوم – رزقنا الله الأسوة بهم – كانوا يهتمون بفهم كل لفظة من الوحي ولا يهدأون حتى يستيقنوا لهذه المعاني.

والمثال الثاني: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير}، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}، قال: نعم {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا}، قال: نعم {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به}، قال: نعم {واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} قال: نعم.

وأقول في هذا المثال الثاني ما قلته في المثال الأول: إنه يدل على أن القوم – أخذ الله بنا على طريق الاهتداء بهديهم – كانوا يضعون الوحي كله موضع التطبيق والتنفيذ وما صعب عليهم سألوا عنه وطلبوا فيه التخفيف.

ويدل لكون هاتين الحادثتين معًا وما استنبطنا منهما هو دأب الصحب الكرام وشأنهم الدائم: حديث أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذي كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

لقد غرس الصحابة في أرض الإسلام ونمت شجرتهم من مدده وحملت ثمارها من فيض جوده وعطائه فكان هذا الإسلام العظيم الذي رأيناه تحقق يومها في أرض الواقع.

وأنا ألمس هذا العمل الكريم الكبير مصورًا بوضوح في وصف القرآن الكريم للصحابة في سورة الفتح: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا}.

هذه النخلات التي كانت في بدئها فسائل صغار قليلة، ثم نبتت من حولها مثيلاتها فتضاعفت، ثم اشتدت وقويت.

ابتدأوا في الدخول في الإسلام وهم عدد قليل، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم: {قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرًا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا إنك كنت بنا بصيرًا}.

وبهذا بلغ دين الله تعالى ما بلغه في زمانهم، وبأثره بلغ ما بلغه في الأزمنة التي تلت زمانهم.

ثم حدث بعد هذا أن تخلَّت الأمة عن هذه المهمة شيئًا فشيئًا، انشغلت عنها، فترت الهمم وخارت العزائم عن القيام بها، فكان من أثر ذلك أن انحط المسلمون مرتين، مرة عينًا وذلك بسقوط الخلافة الإسلامية في أوائل القرن الرابع عشر، وقبل ذلك – ربما بقرنين أو أكثر – كانت قد سقطت وصفًا، فلقد كان خط الانحراف الزمني في حياة المسلمين قد بدأ عندما بعدنا عن منهج الصحابة الذي وصفناه (المحافظة على القرآن والسنة لفظًا ورسمًا ومعنى وعملًا، وتوريثهما على هذا النحو، والدعوة إلى ذلك بكل

وسيلة ممكنة، مع الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل وصولها إلى الخلق) ثم لما بلغ الانحراف مداه سقطنا عينًا وشكلًا.

لقد كان من أعظم أسباب سقوطنا: الجهل في معظمنا، ولقد كان من أعظم أسباب سقوطنا: نصف العلم في بعضنا، ولقد كان من أعظم أسباب سقوطنا: فساد الأخلاق في جمهورنا عامة وفي أمرائنا خاصة، وفي علمائنا بنوع أخص، ولقد كان من أعظم أسباب سقوطنا: الجبن والهلع واليأس والقنوط بعدما كنا مثال الدنيا في أضداد ذلك كله.

ولقد صارت المعاني الإسلامية التي انتصر بها أسلافنا الكرام عقبات في طريق عودتنا إلى هذا النصر، عندما انقلبت علينا مفاهيمها، لقد رأى الأسلاف عقيدة القضاء والقدر عقيدة دافعة، رأوا الأجل يحميهم من الموت فتقدموا للتضحية بأنفسهم وأموالهم فداء لدين الله ومن ثم طافوا المشارق والمغارب وبذلوا الغالي والنفيس بكل ثقة وطمأنينة إلى أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، فكانت الهلكة عندهم هي الركون إلى الزرع والضرع كما يشير إليه قول الله تعالى: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته"، وقعدت بنا تلك العقيدة ذاتها عندما طلبنا النصر بلا أسباب، أو توهمنا التعارض بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى، أو أخلدنا إلى الأرض بحجة أن القدر نافذ وغفلنا عن أن الله تعالى قد كلفنا بمنازعة القدر بالقدر.

هكذا تغير مفهوم القضاء والقدر.

ومثل هذا مفهوم العبادة الذي كانت تعني صرف العبد حياته كلها لله عز وجل، لا تخرج لحظة منها عن ذلك، على نحو قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك

أمرت وأنا أول المسلمين}، فصارت العبادة –كما نرى في حياة المسلمين – إنما تعني: الشعائر الظاهرة: الصلاة والصوم والزكاة والحج!

وأصاب هذا التغيير مفاهيم كثيرة، وبالإجمال: يكفي أن نعلم أن أسلافنا الصالحين لم يعرفوا هذا الفرق الذي نعرفه نحن الآن بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة بل الأعمال كلها يجب أن تطوع لأجل الآخرة، بين بناء الحضارة والتعبد لله تعالى بل بناء الحضارة هو جزء من التعبد لله تعالى، وهكذا مفاهيم كثيرة تغيرت وتحولت وتبدلت، حتى أصاب ذلك التبديل مفهوم أعظم كلمة في حياة المسلمين، وهي كلمة النجاة والإخلاص والتوحيد، كلمة: (لا إله إلا الله) التي كانت من قبل تغطي كل جزئية في حياة المسلم ويصحبها في جميع أحواله وتظلل كل مساحة من حياته في أقواله وأفعاله وأحواله، فصارت إلى ما ألفه المسلمون مؤخرًا من أن هذه الكلمة إنما هي كلمة تردّدها الألسنة نعم وتعتقدها القلوب، لكن الجوارح والأعضاء ليست ملزمة بأن تمضي على ما ترسمه هذه الكلمة لها من طرق ولا أن تسير وفق ما تضعه لها من أصول وضوابط، فللمرء أن ينشئ لنفسه من المناهج ويختار لذاته من الخطط ويضع لنفسه من الأساليب ما يحب، وساعدت على ذلك نظريات منحرفة أصَّلت لأن الإيمان بأنه مجرد التصديق، أو التصديق مع الإقرار، هذا أو هذا، لكن العمل بكل حال خارج عن الإيمان وليس جزءًا منه ولا شرطًا فيه فمن شاء عمل ومن شاء لم يعمل وغرس في حياة المسلمين اليوم أنه ناج وإن لم يعمل خيرًا قط، بهذا وما سبق وغيرهما – بإيجاز فإن الاستقصاء يطول بنا – انحط المسلمون وذلُّوا.

والسؤال الذي ينبغي الاشتغال به كثيرًا كثيرًا هو: ما هو الطريق إلى العودة، كيف يمكن لنا أن نرجع إلى العز والنصر والريادة التي كنا نحن المسلمين عليها طيلة قرون قبل أن تزل أقدامنا إلى هذه الهوة السحيقة، هذا السؤال تدور جهود العلماء الصادقين في فلكه منذ قرن من الزمان، وحق له أن يشغلهم كل هذا الوقت.

وأريد أن أخلص إلى مفتاح ما قالوه في هذا الموضوع من خلال كلمتين عظيمتين حتى نستطيع تذكرهما وتدبرهما بيسر وسهولة، هاتان الكلمتان هما: العلم والربانية.

وأعني بالعلم: العودة إلى حفظ القرآن الكريم والعلم بمعانيه والعمل بها والدعوة إليها، وحفظ السنة النبوية والعلم بها والعمل بها والدعوة إليها، وتربية الجيل الناشئ على هذا، ومن هنا نحقق من مقاصد الرسالات: (هداية الخلق، وإقامة الحجة، وتبليغ ما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الوحي).

وأعني بالربانية: الاجتهاد في التقرب إلى الله تبارك وتعالى على طريق العمل الإسلام فالإيمان فالإحسان، على طريق المحافظة على الفرائض فالنوافل فرعاية الخطرات، على طريق منازل السائرين ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الاجتهاد في هذا وتربية جيل من الأجيال عليه يكون قدوة لمن خلفه ونموذجًا من القرآن يمشي على الأرض يتمثل فيه الإسلام عمليًّا يكون حجة ودليلًا على ما يسمعه الناس عن الأولين من الصحابة والتابعين لم يكن من القصص الفكرية أو الأساطير التي لا حقيقة لها ولا وجود في أرض الواقع، وإذا فعلنا ذلك نكون قد حققنا من مقاصد الرسالات: (القدوة الحسنة، وتزكية النفوس).

وبيان هذين الأمرين عمليًّا يستدعي منا وقفتين اثنتين نفصلهما فيهما ونعطيهما حقيهما ومستحقيهما من الحديث ورصد التجارب، لهذا أرجئ الحديث عنهما الآن مكتفيًا بهذه الإشارة وإثارة الحماس للقاء نتحدث فيه عن العلم وآخر عن الربانية بمشيئة الله تعالى أسأل الله الكريم أن يكتب لنا بفضله البقاء وأن يقدر لنا بتوفيقه اللقاء.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم وشرَّف وكرَّم وعظَّم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد الجوهري